اضحكْ بشكل صحّي
ولا تؤذِ نفسك من الضحك

قد يموت المرء من الضحك فعلاً، وهذا أمر معروف. يروي المؤرّخون عن أنواع من التعذيب الوحشي خلال حرب الثلاثين عاماً على سبيل المثال. كانت القدمان العاريتان للمذنب تُطليان بالملح ويُترَك الماعز يلعقهما إلى أن يموت المعذَّب من الضحك بالمعنى الحرفي للكلمة.

ولكن نحن لا نريد أن نموت من الضحك ولا أن نتأذّى منه، إنما نريد أن نضحك بشكل صحّي.

منذ بضعة أيام أثار لدي سيدٌ أنيق وظريف نوبة ضحك عميقة في مطار ميونيخ، حيث كان كل منا ينتظر حقيبته عند السير الناقل، وسط جموع الناس المنتظرين والمنهَكين ومعكّري المزاج.

كنت أحمل في يدي باقة زهر ضخمة. نظر إليّ ورفع يده قائلاً: «لا ، شكراً»، مثلما يقال لبائعة زهور تعرض وروداً للبيع في الحانة.

في أول الأمر ضحكت أنا فقط، لدقائق، ثم لم يلبث هو أيضاً أن شرع بالضحك، تلتْه مجموعة الناس من حوله، وأخيراً عشرات على الأقل من المنتظرين الآخرين، من غير أن يعلموا لماذا يضحكون. فقد أُصيبوا بالعدوى ببساطة.

وربما أدى هذا الضحك عند هؤلاء الناس المعكّري المزاج في الأصل إلى طبْع يومهم بالكامل بطابع الحلاوة والارتياح.

مسافرون معكّرو المزاج أصيبوا بالعدوى ببساطة من ضاحكين آخرين

توماس دريغر، مدير جوقة الضحك، روى لي أنه بعد أن شرع ذات مرة بالضحك مع مجموعة من الأشخاص في الترام، راحت العربة بكاملها تقهقه معهم.

بيد أن نوبة الضحك بعد الطعام قد تكون خطيرة أيضاً. ففي النزهة التي أعقبتْ وجبة خفيفة ونباتية بالطبع، كنا تناولناها في مطعم بحري، أُصيبت صديقتي داغمار، لمجرد مظهري، بهجمة ضحك كانت من الشدة إلى درجة أنه كاد يختنق منها.

هنا أضحك مع ابنة الجيران

فبسبب الجو البارد كنت أرتدي سترة شتوية خضراء سميكة ذات قلنسوة وفوقها مشمّع مطري أزرق ذو قلنسوة أيضاً قمت بربطها تحت ذقني على شكل أنشوطة أنيقة. ومن سبق له أن زار شلاّلات نياغارا يعرف هذه الأشياء، ذلك أنها تُسلَّم لجميع الزوّار بغية الحماية من رذاذ المياه، فهي عملية جداً ويمكن طيّها ودسّها في الجيب. ولكن من يرتديها يبدو مثل

الرجل الوطواط، سيما عندما تسري هبّة ريح تحت الغلاف البلاستيكي، مثلما حدث لي.

لابد أن داغمار قالت في نفسها: لا يجوز للمرء أن يظهر على هذا النحو، على الأقل في شيمغاو، وخصوصاً إذا كان شخصية عامة، شأني أنا. فلاشك في أن المرء يتوقّع منها أن تكون بهندام محترم إلى حد ما وأن تسعى عموماً إلى ترك انطباع حسن. بيد أن ملابسي المضحكة كانت على تناقض تام مع هذه التوقّعات.

أيجب على الشخصية العامة أن تظهر بهندام محترم على الدوام؟

على أية حال فقد انتابت داغمار ثورة الضحك هذه من مظهري إلى درجة أنها أخذت تصرخ وتمسك بطنها من الضحك، وبدت لاهثةً وكأنها على وشك الإصابة باحتشاء قلب، وكانت تتلوّى من الضحك أولاً ثم من الآلام بعد ذلك، إلى أن انتهت النوبة أخيراً.

ما المغزى من الحكاية؟

«إذا كنت متخماً فلا تضحك بجنون!»

وإلاّ حدث لك ما حدث لذلك اللقلق الذي التهم الدودة العمياء.

استمعوا إلى هذه القصيدة التي كانت خواصرنا تتمزّق من الضحك منها عندما كنا أطفالاً، بـ «ضحك الديغيديغيديغيديغي» الذي يقشعر له البدن.

لا بل بإمكان المرء أن يغنّيها!

وإليكم العلامات الموسيقية.

لقلق يتنزّه على ضفاف البركة

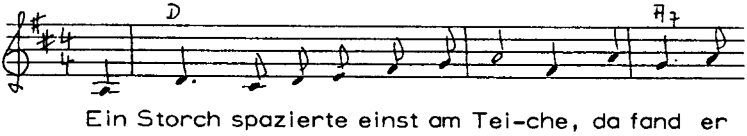

لقلق كان يتنزّه يوماً على ضفاف البركة، وإذا به يعثر على
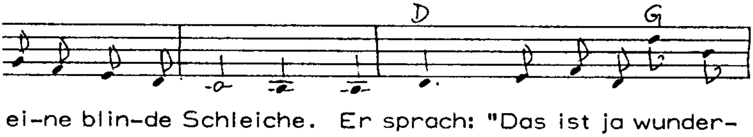
دودة عمياء. قال: هذا رائع!

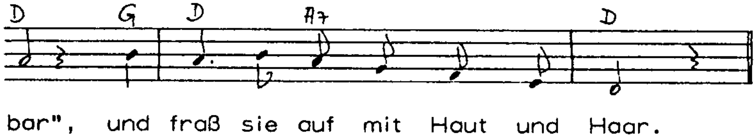

والتهم الدودة عن بكرة أبيها

قصيدة اللقلق والدودة العمياء

«لقلق كان يتنزّه يوما على ضفاف البركة
وإذا به يعثر على دودة عمياء.
قال: هذا رائع!
والتهمها.

قبعت الدودة في معدته
وكان وضعاً لم يتحمّله الاثنان.
فعبّرت الدودة عن اشمئزازها
واتّجهت خارجة من المخرج الخلفي.

نظر اللقلق مستاءً
مما يحدث له.
لذلك، ودون تمييز
التهم الدودة للمرة الثانية.

وأسند ضاحكاً بحنكة
مخرجه الخلفي إلى الحائط
وقال للدودة في داخله:
والآن تفضّلي، تسلّلي إن استطعت!

إذ ذاك تسلّلت الدودة الماكرة بدهاء
خارجة من المخرج الأمامي؛
ولكن اللقلق، ودون تمييز
التهمها بغضب بالغ للمرة الثالثة».

ديغيديغيديغيديغي! جميع الأطفال يصرصرون مبتهجين. أولاً يتبرّزها ثم يلتهمها، ثم يتقيّؤها، ثم يلتهمها مرة أخرى، كيكيكيكيكيكيكيكيكي!

من المعروف أن الأطفال يحبّون ويضحكون من المواقف الهزلية التي لها علاقة بالجزء السفلي من الجسم، وبوجه خاص أعضاء الإطراح.

مهلاً! فبعد ذلك يحدث ما هو أسوأ:

«ثم قام اللقلق، في اختراع ماكر،
بوصل كلا المخرجين.
وقال للدودة العمياء في داخله:
والآن استعدّي لتجوال دوّار!»

بهذا تنتهي القصيدة التي أمتعتْني فيها التنوّعات الطريفة المفعمة بالخيال حول اسم هذه الدويدة

الفضّية التي إذا كانت فعلاً عمياء، إلاّ أنه لابد أنها كانت على جانب كبير من المكر.

هل تذكرون أنتم أيضاً نكتة أو أغنية أو موقفاً هزلياً من أيام طفولتكم دفعكم إلى الضحك منه؟

إليكم النكتة التالية التي تعود إلى أيام طفولتي:

صاحب متجر خشب يريد اختبار سرعة بديهة صبيّه الجديد، يتصل هاتفياً بالمتجر من الخارج، ويردّ الصبي على الهاتف:
صاحب المتجر: «ألديكم ثقوب في الخشب؟»
الصبي بعد برهة قصيرة: «بالطبع، نحن نبيع ثقوب في الخشب أيضاً!»
صاحب المتجر: «تبيعون ثقوب في الخشب؟»
الصبي: «بالتأكيد، فالثقوب في الخشب سلعة الموسم. وقد نفدت البضاعة كلياً، فقد أرسلنا للتو طلبية من 100000 ثقب في الخشب إلى أمريكا لصالح مصنع ألعاب»
صاحب المتجر: «100000 ثقب في الخشب إلى أمريكا؟ ماذا يصنعون بـ 100000 ثقب في الخشب؟»
الصبي: «ثقوب في الخشب للأحصنة الهزّازة!»

تستاهل! ضحك عن شماتة

يظهر الضحك بصور عديدة ومتنوعة.

يمكن أن يكون الضحك عميقاً، خارجاً من البطن، ولكنه قد يكون أيضاً تخوّفاً، تفجّعاً، حيرةً وارتباكاً، شماتةً، كذباً. ونحن نعرف تعبير «الورثة الضاحكون» الذي يعود إلى القول رقم 187 من الأقوال المأثورة لـ بوبليليوس سيريوس، والذي ينصّ على ما يلي:

«بكاء الورثة ضحك مقنّع».

والضحك الشامت محبوب بشكل خاص.

استثرتُ ذات مرة شخصياً قهقهة شامتة، أي ضحك - تستاهل.

في عمر السبعين صحتي أفضل منها في عمر الثلاثين

حدث ذلك لسوء الحظ خلال محاضرة في موضوع كتابي «لنبقَ أصحاء»، حيث أُصِبت بدوار، والأدهى أنه فاجأني بعد ما ادّعيت، وهو ادّعاء صحيح بالطبع، أن صحّتي اليوم، وقد تجاوزتُ السبعين من

العمر، أفضل من صحّتي عندما كنت في الثلاثين، وإن ذلك يعود بالتحديد إلى تغذيتي الكاملة. فقد كنت مرهقةً بالفعل، وبالكاد نمت في الليلة الفائتة جراء نشاط قمت به في إطار الرفق بالحيوان، ثم أنهكت نفسي بالطيران إلى برلين في هذا الموعد، وأكاد لم أتناول شيئاً من الطعام ولم أشرب إلاّ القليل من الماء، أضف إلى ذلك تقلّب الطقس بين القيظ المحرِق والبرودة الفجائية إثر برق ورعد صحراويين.

كان باستطاعتي خلال محاضرتي استخدام الكرسي الموجود، ولكنني لم أفعل، وأردت الوقوف كعادتي دائماً، فأنا أشعر أنني أخفّ حركةً وأنا واقفة، وأنني على اتصال أفضل مع المستمعين.

كانت المحاضرة الفعلية قد انتهت، والنقاش على قدم وساق.

خلعتُ سترتي معقّبةً أن الجو هنا خانق فعلاً، ولكنني مع ذلك شعرتُ كيف بدأتُ أتعرّق وأحسستُ بدقة موقفي وحرجه، وربما ساهم في ذلك أيضاً أن إحدى السيدات أصرّت على عدم تصديق أن مشتقّات الحليب غير مفيدة، خصوصاً إذا ما أفرط المرء بتناولها.

طوال 30 سنةً من النشاط المسرحي كنت صلبة العود ومنضبطة ـ فالعرض يجب أن يستمر ـ وقد حاولتُ الآن التغلّب على الخواء الدموي الوشيك في رأسي بمساعدة التنفّس العميق وضغط بعض نقاط الوخز بالإبر ذات الصلة، ولكن دون جدوى. وسمعت نفسي، كما من خلال ضباب أبيض، أمضي في الحديث عن عبث التهام الكثير من اللبن والجبنة، وتخلّل ذلك كلمات مستفِزّة لرجل مسنّ من الجمهور يصرخ بهياج وهو يلوّح بيديه: لقد تناولتُ مشتقّات الحليب على الدوام وأنا الآن في الثانية والتسعين من عمري. في هذه اللحظة كدت أسقط مغشياً علي لو لم يتلقّفني بضع من المستمعات اللواتي سارعن إلي وأجلسنني على الكرسي الذي يُفترَض بي أن أجلس عليه على أية حال، لأحاول عندئذ أن أساعد نفسي، وحالي تثير الشفقة، على النهوض ثانيةً من خلال تناول قطرة الأزهار النهرية الإسعافية ومسّاج القدم الانعكاسي ووسائل أخرى، وكلها مذكورة في كتابي!..

أظنّ أنه كان وهماً، ولكنني سمعت كالثملة الرجلَ المسنّ يضحك ملء شدقيه وهو يقول: «هي هي هي، أنا في الثانية والتسعين وقد تناولتُ مشتقّات

الحليب على الدوام، وهاهي المدّعية النباتية، بكل حكمتها، تخرّ مغشياً عليها، هي هي هي!».

وتعلّمت مجدّداً درساً.

هل يعمر النباتيون أطول من الآخرين، أم ماذا؟

منذ ذلك الحين أحاذر الادّعاء أن النباتيين يعمّرون أطول من الآخرين، وأترك هذا الأمر للعلماء وإحصاءاتهم.

ولكنني أفلحت في إلقاء نكتة صغيرة في هذه الأمسية أيضاً. فسرور الجمهور، وخصوصاً آكلي اللحوم، يكون عظيماً عندما أسخر - أنا النباتية منذ أكثر من ثلاثين سنة - من النباتيين في ختام النقاش.

«لا يعمّر النباتيون أطول، إنما يظهرون فقط بمظهر الأكبر سنّاً». يستأهلون!

ولا شك أن هذا القول وجد قبولاً لدى السيد المسنّ الشامت.

أحاديث من المسرح

المناسبات الجدية تزيد من الرغبة في الضحك

لا شك في أن معظمنا سبق وأن شهد كيف أن الرغبة الوشيكة في الضحك يمكن أن تغدو رغبة لا تُقهَر، وذلك تحديداً بوجود ما يُسمّى الأسباب الجدّية سواء في المدرسة أم في الكنيسة أو في أثناء تشييع الجنازات أو العروض الغنائية الفاشلة وما شابه من المناسبات الاحتفالية.

وعلى العكس، إذا كان من المتوقَّع أن يضحك المرء، فغالباً لا يسير الأمر بصورة جيدة.

يُعدّ الضحك المدبَّر أو المشهدي على خشبة المسرح من أصعب الأمور على الإطلاق بالنسبة للممثل.

وقد قامت الممثّلة كارلا هاغِن بأداء مشهد مضحك رائع يكاد يكون مجنوناً في إخراج فريتْس كورتنر لـ «عطيل» على أحد مسارح برلين. لابد أن الأمر كان في الخمسينيات، أي قبل نصف قرن مضى، ولكنني لا أنساه إلى اليوم.

أدّت كارلا هاغِن دور الخادمة إميليا التي تقوم بنقل رسالة. في كل مرة، وعند شروعها بأداء الدور، كانت ترتجّ بضحكات تشنّجية ـ دون سبب واضح ـ إلى درجة أنها لم تكن تتلفّظ بجملة واحدة، وأخيراً تغادر الخشبة، وقد انعقد لسانها كلياً، ماسكةً بطنها وتكاد لا تلتقط أنفاسها من شدة الضحك.

إنجاز هائل لابد أنه استمرّ لدقائق. وقد صفّق لها الجمهور تصفيقاً عاصفاً.

من جهتي أنا أتوق للظهور على المسرح في مثل هكذا مشهد.

نوبة الضحك هذه كانت مدبَّرة ومشهدية. ولكن ماذا لو حدثت على نحو غير متوقَّع، وبالتحديد عندما لا يستطيع من تستحوذ عليه أن يستخدمها أو يوظفّها بأي حال من الأحوال؟

هذا ما حصل مع مذيع أخبار محبوب في سيدني. كان على الرجل أن يتلو نبأً يتعلّق بإحدى الكوارث، ولكنه لم يستطع النطق بالخبر السيّئ دون أن يُطلِق نفخة ضحك وسط الخبر. تنحنح المرة تلو الأخرى، تصبّب جبينه عرقاً من الجهد الواضح الذي بذله للسيطرة على نفسه. ولكن شيئاً لم يفدْه، وبدأت

زاويتا فمه بالارتعاش بشكل مفضوح، واستحوذ على عينيه شرر له وقع الطرب المطلَق بما يناقض كلياً خبر الكارثة الذي ينقله، وابتدأ الأمر من جديد. وأخيراً لمعت عيناه كلياً.

لقد ضحكتُ معه وأشفقتُ عليه، إذ أن المؤسّسة التلفزيونية أرادت تسريحه والاستغناء عن خدماته بسبب الحدث. ولكن كون الرجل محبوباً وكثرة طلبات العفو التي وصلت من المشاهدين أدّت إلى احتفاظه بعمله.

ما يمكن أن يحدث على خشبة المسرح في نوبات الضحك

أنا شخصياً، كما قلت، شمطاء ضحوكة بشكل مخيف... وتتفاوت ردود أفعال الجمهور بشدة حينما تداهم الممثّل نوبة ضحك. فإذا لم يستوعب الجمهور سبب الضحك الذي لا يتّفق مع البرنامج على خشبة المسرح، قد يتملّكه الغضب. أما إذا شعر أنه في صورة ما يجري، فإنه يتفهّم الأمر، لا بل قد يشارك في الضحك، كما هو الحال، على سبيل المثال، عندما ينهمك أحد الممثّلين وسط المسرحية ساعياً إلى تزرير سرواله المفتوح سهواً، فيسحب مفرش الطاولة ويقلب عنها أطباق الطعام.

وهذا ما حدث فعلاً!

في «الكوميديا الصغيرة» في ميونيخ، وفي وسط عرْضٍ لـ «فرانسوا ساغان» بعنوان «قصر في السويد»، حدث أن انهارت الأريكة تحتنا، السيدة الجليلة ليل داغوفر وأنا. فما كان من الجمهور إلاّ أن أخذ بالضحك والتصفيق.

على العكس، قد يثير الجمهور أيضاً ضحك الممثّل من خلال الهتافات التي يطلقها. اسألوني أنا عن ذلك، أنا التي أمضيت 30 عاماً على خشبة المسرح!

يبدأ أحد الفصول في المسرحية الهزلية «40 قيراط» برفع الستارة وأنا أتّخذ وقفة الرأس، محشورةً في ثوب متدلٍ أخضر، فيؤكّد شاب في الصف الأول بصوت مرتفع: «يا للمصيبة، ودون شبكة على الإطلاق!».

ولم أكن يوماً أسرع مني الآن في النزول على قدميّ.

في مسرحية «المومس الفاضلة» لـ «سارتر» أنتظر، مرتديةً ثوباً ذا حزام وحمّالات جوارب سوداء، الخطيب التالي. وإذا برجل من الجمهور يصيح من الصفّ الأخير: «والآن فقط أقول أية تعيسة عندي في البيت». ويضحك المسرح بكامله بالطبع.

هتاف صدر عن الجمهور في أحد مسارح ميونيخ كاد يمنعني من مواصلة التمثيل. كنت أقف أمام تشارلز رينييه في مسرحية «من يخاف فرجينيا وولف» لـ«آلبي»[15]. في الفصل الأخير أنوح بصوت حزين مُبكٍ على زوجي جورج وأنا أقذف مكعّبات الثلج في كأس الويسكي (الذي كان يحوي كالمعتاد عصير تفاح ليس إلاّ)، وإذا بسيدة جالسة في شرفة المسرح تصيح ظافرةً بلهجة هامبورغية جميلة: «هذا يعود إلى الإفراط في شرب الويسكي!».

من الصعب أن تبقى جدّياً في مثل هذه الحالات. سيما وأن الجمهور اضطرّ إلى الضحك أيضاً.

هل يمكن للمرء أن يموت مع أغنية على التعدين

لا تشكّل مثل هذه الأمور في الكوميديا أية مشكلة، ولكنها في التراجيديا قد تقود إلى الكارثة، كما حصل في أحد عروض «مكيدة وحبّ»، عندما أراد الممثّل أن يموت مع أغنية على التعدين بدلاً من أن يموت مع أغنية على الشفتين[16].

وقد تعرّضت لمثل هذا الموقف المحرج في تراجيديا

(15) إدوارد آلبي: مؤلّف مسرحي أمريكي معاصر (المعرِّب).

(16) الشفتان باللغة الألمانية: Lippen، والتعدين: Luppen (المعرِّب).

شترندبرغ «الآنسة جولي» تحديداً ـ لأسباب لا يعلمها إلاّ الله كان عليّ دائماً تجسيد شخصيات نسائية عصابية في الغالب ـ فكلما اقتربت من موضع محدَّد من النصّ في هذه المسرحية لم يعد بإمكاني النظر في عيني شريكي دون أن أنفجر في ثورة ضحك عنيفة. غرزت أظافر أصابعي في يدي حتى كادت تنزف دماً، ولم أنظر في عيني ديتمار إطلاقاً، إنما في جبينه فقط، حيث يُفترَض بالطبع أن تقع العين الثالثة الشهيرة، ولكن دون جدوى. وأخذ الحال يزداد سوءاً مع كل عرض. وكان لا يزال أمامنا جولة مسرحية كاملة.

كيف سيطرت على نوبة الضحك بسحنة الوجه

أخيراً تحقّق لي ما أردت، ورحت أتصنّع من خلال وجهي تعبيراً مماثلاً لتعبير الألم بمجرد الاقتراب من الموضع المشؤوم من النصّ. وعلى هذا النحو فقط كنت أنقذ العرض، ولم يلاحظ الجمهور شيئاً.

«الوجه المتألّم» ذاته أنقذني ذات مساء خلال تلبيتي لدعوة في السفارة الألمانية في غانا الأفريقية. فقد قامت سيدة ألمانية عجوز بإلقاء قصيدة «من يركب الخيل في هذا الوقت المتأخّر عبر الليل والريح؟». كانت نيتها طيبة وسعيها مشكوراً، ولكن الأمر كان فظيعاً.

في مثل هذه المواقف لا يعود بإمكان المرء سوى إسناد رأسه إلى راحتيه، كما فعلت أنا، مما يوحي بأنه في حالة قصوى من الانتباه أو حتى التأثّر. وإذا ما ارتجّ من الضحك عندئذ ظنّ الجميع أن هذا هو الحنين إلى الوطن ألمانيا.

هناك الكثير من نوبات الضحك على خشبة المسرح والتي تستعيد أوساط الممثّلين ذكراها بمتعةٍ شديدة.

إليكم واحدة منها، على الرغم من أنني لم أشهدها شخصياً: خلال عرض «كلافيغو» لـ «غوته»، تتعالى موسيقا حالمة، حيث يجري تشييع جنازة ماري بومارشيه التي تحطّم قلبها وماتت حسرةً على كلافيغو الذي خانها وهو أحبّ الناس إلى قلبها ، وفي هذه اللحظة بالذات يمرّ حبيبها الخائن ويسأل: «من تدفنون هنا؟».

لابد أن يكون الجواب «ماري بومارشيه». تلك كانت العبارة الوحيدة التي كان على الممثّل، الفتي غالباً والمكلَّف بقولها، أن ينطقها خلال العرض بكامله. والظاهر أن أسرته بكاملها كانت تجلس في الصالة كي تشهد الدور الرائع الذي يؤدّيه نجلُها. ولكن ماذا قال هذا الفتى في غمرة اضطرابه وارتباكه؟ تلعثم

وتلعثم، ولكنه لم يهتدِ إلى الاسم الصحيح وانفجر أخيراً قائلاً: «مممممممم ـ مينان فون بارنهيلم».

ويُقال إن النعش كاد يسقط من يدي حامليه من شدة ارتجاجهم من الضحك.

الممثّل الشهير الرائع غينسبرغ، الذي كثيراً ما انتابته هجمات الضحك، كانت إدارة المسرح قد هدّدته بالقول: «مع أول هجمة ضحك مماثلة على خشبة المسرح، اعتبرْ نفسك مفصولاً».

وحدث ما لابد أن يحدث. لم يستطع غينسبرغ السيطرة على القهقهة الهيستيرية المتصاعدة في داخله إلاّ بافتعاله حالة إغماء؛ فأُسدِلَت الستارة وكان لابد من نقل الممثّل إلى المستشفى، الأمر الذي يدلّ بدوره على مقدرته التمثيلية.

أحتفظُ بذكرى مضحكة خاصة عن المخرج فريتْس كورتنر. كان كورتنر محبوباً ومرهوب الجانب من قبل ممثّليه، لأنه كان متقلّب المزاج جداً. وكان يظهر في التدريبات في بزّة وربطة عنق دائماً. فإذا كانت البزّة رمادية نُصِح باتخاذ أقصى درجات الحيطة والحذر؛ إذ قد يكون عندها شديد القسوة.

كنا، رومي شنايدر وأنا، نشتغل من إخراجه «ليزيستراتا» لـ «أريستوفانس» لصالح التلفزيون. لا شك أنكم تعرفون ذلك المقطع الذي تظلّ فيه النساء يمتنعن عن الرجال إلى أن يكفّوا عن الحروب. كانت رومي تقوم بدور ميرّين وأنا بدور ليزيستراتا، بينما كان فولفغانغ كيلينغ يلعب دور زوجي. في أثناء التدريبات جرّب هذا الأخير نكتةً دفعت المخرج كورتنر الجالس في غرفة المشاهدة إلى الضحك لها بصوت عالٍ. وقد اعتقد كيلينغ السعيد للغاية أن هذه النكتة الموفّقة سوف تُدرَج في الإخراج. ولكن ذلك لم يحدث

فريتس كورتنر يضحك أدنى من مستواه

فقال خائباً: «ولكنك ضحكت لها، سيد كورتنر!»

ردّ المخرج منغّماً صوته: «نعععععم، ولكن أدنى من مستواي!».

اضحكْ عندما تجد في نفسك الرغبة في الضحك. ولا بأس أن تضحك، أدنى من مستواك!

توجد الفكاهة
ولو ضحك المرء رغماً عنه

يُنسَب لـ «وودي آلن» أنه قال إنه يكاد لا يجد في معظم الوقت شيئاً مضحكاً، وفي ما تبقّى من الوقت لا شيء على الإطلاق.

هل الممثلون الهزليون جميعهم سوداويون؟

يبدو أن الممثّلين الهزليين أشخاص سوداويون في الغالب. هل تعرفون استثناءً؟ الدعابة الضخمة تبدو كمتنفّس لعدم الدخول في حالة من الاضطراب الكلي؟

ويؤكّد يواخيم رنغلناتس: «الفكاهة هي الصمّام الذي يحول دون انتفاخ أوداجنا غضباً».

توجد الفكاهة عندما يضحك المرء رغماً عنه! كان الممثّل غوستاف كْنوت يتمتّع بقسط وفير من الفكاهة. وقد روى لي القصة الحقيقية التالية حول أطفاله الصغار الأحباء، وضحك منها شخصياً!

كانت القط كاتي حبيب أسرة كْنوت.

ذات يوم دُهِسَ كاتي. وكان غوستاف كُنوت خارج المنزل عندما حاولت زوجته نقل الخبر المفجع للأطفال بكل رفقٍ وحذر: «لقد دُهِسَ كاتي، لقد مات!».

وكم كان استغراب السيدة كُنوت شديداً لعدم تفاعل الأطفال مع الخبر على الإطلاق، بل راحوا يواصلون لهوهم بكل ارتياح ودون أدنى انفعال أو تأثّر!

على الغداء سأل أحد الأطفال: « أين هو كاتي إذاً؟».

أجابت السيدة كُنوت: «لقد أخبرتكم أن كاتي دُهِس، لقد مات!».

وإذا بالأطفال جميعاً ينفجرون في ولولة ونواح عظيمين: «آخ، لقد ظننّا أن فاتي[17] هو الذي دُهِس ومات!».

يدل الموقف التالي أيضاً على الفكاهة والسخرية من الذات. من عادة ميتشهيلد شيفر، مؤلّفة كتب المعالجة بالأزهار النهرية، أن تظهر في حلقاتها

(17) فاتي Vati بالألمانية تعني بابا وقد ظنّ الأطفال أن فاتي، وليس كاتي، هو الذي دُهِس ومات (المعرِّب).

الدراسية بكامل أناقتها على الدوام. وهكذا كانت هذه المرة أيضاً.

كان جمهورها ينتظر ظهورها بصمت وهدوء تام عندما وطئت قاعة المحاضرات بثوب رائع، بالفيروز من رأسها إلى أخمص قدميها.

وكانت قد أحضرت معها أحد كراسي الخطباء العملية المرتفعة ذلك الذي يكون المرء عليه نصف جالس ونصف معلّق، وما إن تأهّبت لتسلّقه حتى انهار تحتها.

فجاء تعليقها الجاف سريعاً: «إذن يُفضَّل ألاّ نفسّر هذا إيزوتيرياً!».

لم يكن رد فعل الجمهور شماتةً، بل ضحكاً عاماً مفرِّجاً.

النكتة هي انحلال حالة توقع متوتر في اللاشيء

«النكتة هي انحلال حالة توقّع متوتّر في اللاشيء»... أو أيضاً في شيء غير متوقَّع إطلاقاً ويناقض ما هو متوقَّع. تشبه هذه القصة الظهور الكبير الموصوف سابقاً لـ «كورد يورغنس» الذي كان يهبط السلّم تحت أنظار الكثير من الناس، وهو في كامل أناقته، فتعثّر في خطاه.

أنا شخصياً اضطررت ذات مرة إلى المشاركة في مغامرة مسلّية أيضاً. خلال معالجة اتّبعتُها وقعتُ ضحية مخالب مدلّك إيطالي، بالمعنى الحقيقي للكلمة. كان الرجل سادياً، ولكن يا له من شخص هزلي! كلما زاد تأوّهي واشتدّت ولولتي اشتدّت متعته وساديته. وبعد إحدى صرخاتي المتألّمة سأل بصوت خافت ونبرة متوسّلة بالألمانية: «الشرطة، سيدتي؟».

ومع صرخة الألم التالية همس: «سيّارة الإسعاف، سيدتي؟».

عندها اضطررت، على الرغم من كل الألم، إلى الضحك بشدة بحيث كدت أسقط عن طاولة التدليك.

ثم كان بيت القصيد. بكل تأنٍّ وقفتُ بعد هذا التعذيب على قدميّ المرتعدتين، وإذا به يناولني ضربة مخلبية معلّقاً: Muskulatura antica

خرجتُ من غرفة المعالجة مترنّحةً من الناحية الشكلية، ولكنني كنت أرتجّ ووجهي غارق بالدموع من شدة القهقهة الجامحة.

وأفسّر لنفسي نوبة الضحك مفرطة الأبعاد هذه في الواقع على النحو التالي:

أنا أتلقّى عادةً مجاملات وإطراءات بسبب مظهري: «بالنسبة لعمرك أنت رائعة في الشكل»، إلخ.. وهنا يأتي أحدهم ويلطمني ويشهد لي بعضلات «أثرية».

اضحكْ حتى عندما تكون أنت ضحية الفكاهة.
إن يوماً من غير ضحك لهو يوم ضائع!

هل من محظورات في النكتة أيضاً؟

كيف نجد النكات التي تخرق المحظورات؟ إنها تثير الضحك على أية حال، ضحكاً مفاجئاً مهوّلاً، وغالباً بسبب انتهاكها المحظورات تحديداً.

ولكن ما الذي لا يزال يُحظَّر أصلاً في هذه الأيام؟ بإمكان الإنسان أن يظهر كما يشاء فالأمر لم يعد يُقلِق أو يستفزّ أحداً تقريباً.

أخطاء اللفظ محببة بشكل خاص عندما تكون خليعة

أي أن الكثير من ينابيع إبداع النكتة قد سقط فيما يبدو، إنما لا يزال هناك ما يكفي من زلاّت اللسان وأخطاء اللفظ التي يمكن للمرء أن يضحك منها. ولا شك في أن أخطاء اللفظ، التي تقع فيها الشخصيات ذات المكانة والسياسيون ومذيعو التلفزيون إلخ، محبَّبة بشكل خاص. وعلى وجه الخصوص عندما تكون خليعة قليلاً.

هكذا يُنسَب لسيدة مجتمع من بلدة شليتْس[18] أنها رحّبت بضيف الشرف بالكلمات التالية: «أهلاً وسهلاً بكم في شليتْسي الصغيرة!».

هاهاها؟

وأنا رأيت شخصياً كاميرا التلفزيون تهتزّ على الشاشة في اللحظة التي تقول فيها المذيعة: شاهدتم فيلم (الثقبة) وتشاهدون الآن (ماينتْس[19] ، كيف تغنّي وتضحك). وقد سمع المشاهدون جملة المذيعة على أنها: «ثقبتي، كيف تغنّي وتضحك».

والحق أن لا أثر مضحك لهذه العبارات إلاّ عندما تُقرأ وتُسمَع في الوقت نفسه. وهكذا كان سبباً للضحك القول الشهير للمراسل الرياضي: «وقفوا على المنحدرات والممرّات...» والذي وصل إلى المستمعين كما يلي: «وقفوا على المنحدرات وتبوّلوا...»[20].

(18) وتعني لغوياً فتحة أو شقّ (المعرِّب).

(19) Mainz (ماينتس) مدينة في وسط ألمانيا، وmeins (ماينس) تعني لغوياً الشيء المذكور خاصتي، وفُهِمَت هنا «ثقبتي» (المعرِّب).

(20) Pisten تعني ممرات، pissten تعني تبوّلوا، ولهما اللفظ ذاته (المعرِّب).

أوشو أكبر مستبيح للمحرمات في كل العصور

يمكن اعتبار معلّمي أوشو أكبر مستبيح للمحرّمات في كل العصور. إنه يستخرج عند كل إنسان ما يغفو في أعماقه من مكبوتات غير واعية، حيث تتوارى التحيّزات والأحكام المسبقة التي يودّ كل منا استنكارها وإنكار وجودها لديه: أنا؟ ولكن أنا لا!

يخلق أوشو النكتة ويتندّر بكل شيء وكل إنسان، سواء أكان الأم تريزا أو البابا، بولونياً أو إنكليزياً أو زنجياً أو يهودياً.

وبوصفي ابنة لأب نازي تشعر بالذنب إلى أبد الآبدين، لا يزال الدم يتجمّد في عروقي عند سماع النكات حول «البولونيين» و «التشيك» التي أحسّ أنها عنصرية، أو النكات حول «المعوقين».

ما رأيكم في النكتة التالية:

يدخل زنجي إلى حانة مع ضفدع على كتفه.

يسأله الساقي: «أين اصطدته إذن؟»

يجيب الضفدع: «في السنغال!».

هنا لا يمكنني أن أضحك.

النكتة انعكاس للمجتمع دائماً، وبالتالي فإن هذه النكات أيضاً تعبير عن شريحة معينة من مجتمعنا.

هل يمثّل اشتهاء الموتى، الذي يظهر في النكات حول الموتى، المحظور الأخير ربما في مجتمعنا الفاسد والمتخم؟

كما قلنا، قد يترنح أحدهم من الضحك من نكتة ما، بينما لا يجد فيها آخر إلاّ سخافة، في حين يجدها ثالث مبتذلة ولا طعم لها.

ثمة مصدر للنكات لا يزال قائماً هو التحيّزات. وهي تتولّد في حالات الخوف من المختلف، من المغاير، من الأجنبي. يروي لنا الممثّل المسرحي غيرهارد بولت في مقابلة مع مجلة GEO أنه ليس بالضرورة أن تكون النكتة دائماً ذات طابع خبيث ونية سيّئة؛ ويقصّ بدوره حكاية شخص اسمه ستوفرْل ويل.

أنقل عنه:

يجلس أحدهم في أوبربايرن أمام كأس البيرة، يحدّق في المروج الخضراء ويقول: «أليس هذا جميلاً؟».

يحني الجميع رؤوسهم بالموافقة ويقولون: «أجل، إنه منظر فتّان».

وفجأة يقول الرجل: «بإمكان المرء الآن قول ما يشاء، ولكن وجود أي زنجي في هذا المنظر الطبيعي يجعله ببساطة متنافراً».

ويوضّح بولت قائلاً: «إن لدى الرجل تصوّراً جمالياً ما عن وطنه، إنه يرى الأشجار والعشب والأبقار، إنها الصورة المعتادة لديه، وإذا ما أقحِم فيها الآن بضعة زنوج، فلا شك أنهم سيشوّشون الصورة بدايةً، ذلك أنهم يتنافرون مع صورة بصرية متوارثة طوال قرون».

وتسأله GEO عندئذ: «هل ما يضحكنا هو العبارة المباغتة أم أننا نضحك لأننا نتصوّر فجأة زنوجاً في هذا المنظر الطبيعي؟».

من الطبيعي أننا لا نجد جميعاً هذه الحكاية مضحكة، فسلوكيات الناس تخضع، فيما يبدو، لمحرّمات ومحظورات متباينة، وهكذا يختلف الضحك في الريف على سبيل المثال عن الضحك في المدينة.

وقد اختبرتُ هذا شخصياً وبصورة مؤثّرة جداً في أثناء مخيم احتفالي بالقرب من بحيرة فالر في النمسا، حيث كنت أقطن آنذاك.

إذن: زاويتا الفم نحو الأعلى: اضحك اليوم!
لا ضرر من ذلك بأي حال من الأحوال.
وأخيراً: اضحك تضحك لك الدنيا!

صندوق نكاتي

يُقال أن مخترعي النكات يتمتّعون بمعدّل ذكاء مرتفع.

عظيم! لم يخطر في ذهني بعد أية نكتة، والاستنتاجات مسموحة.

يقول المعالج والمحلِّل النفسي المذكور آنفاً الدكتور ميخائيل تيتْسه عن رواة النكتة وعن منشأ النكات:

«النكات من إبداع الأشخاص الذين يجدون مسرّة ولهواً في كل أنواع خرق المعيار والقاعدة.

لما كانت النكتة عبارة عن لعب ذكي بالألفاظ، فلا بد أن هؤلاء الأشخاص شديدو الذكاء من جهة، ويجدون في السخرية من الذكاء بالذات لهواً ومتعةً من جهة أخرى. وهكذا تنشأ خروقات منطقية أو مفارقات بين كل من التفكير الطبيعي الاعتيادي والتفكير غير المعقول والمخالف للمنطق.

النكات من إبداع الأشخاص الذين يجدون مسرة ولهوا في كل أنواع خرق المعيار والقاعدة

من الهام بالنسبة لبناء النكتة اقتضابها وقصرها. فالبطء مملّ للمستمع، وينجم الحدث التناقضي الباعث على الضحك عن مغزى النكتة، عن التفاقم النهائي للحكاية الفكهة. وهنا يمكن للحديث أن يدور عن مثال استعراضي لسرعة البديهة أيضاً. ضمن هذا الشرط فقط تتحوّل نكتة، كانت في الأصل من اختراع مبدع مجهول، إلى ملْكية عامة، وذلك بأن تتناقلها الألسن، وغالباً طوال عقود من السنين».

هذا ما ينطبق بدقة على النكات التالية:

النكات:

يلتقي أستاذ الجامعة شارد الذهن بصديق قديم ويسأله: «وكيف حال حرمك المصون؟».

يجيب الصديق: «ولكن زوجتي ميتة منذ سنوات!».

يردّ الأستاذ: «هكذا إذن ولكن ألم تزل في المقبرة ذاتها؟».

يقول الإيطاليون Riso fa buon sangue، «الضحك يعدّل المزاج». إنهم يضحكون بسهولة أكثر منا بالطبع، والشمس تسطع عندهم أكثر منها عندنا.

اكتسبتُ أولى معارفي الإيطالية في بداية الخمسينيات بطريقة التمثّل. كانت الدروس، الموجودة على شريط

تسجيل أيضاً، تتكوّن في الغالب من نكات سخيفة. ولا يخفى على المرء أن الكتاب قديم ويعود إلى فترة ما قبل الحرب، إذ أن مواضيعه تدور في الغالب حول الطعام الذي كان وقتذاك لا يزال شحيحاً فعلاً، حيث نقرأ فيه عن وجبات طعام بـ 4 و 6 ليرات.

إليكم نكاتي السخيفة المفضّلة في مجال الضيافة وتذوّق الطعام:

الزبون للنادل: «ما الفرق بين وجبة الـ 4 ليرات ووجبة الـ 6 ليرات؟».
النادل: «ليرتان!».

الزبون: «أيها النادل، طلبت شريحة لحم محمّرة بالبيض، أين هي شريحة اللحم؟».
النادل: «تحت البيضة!».

الزبون: «ثمة ذبابة تعوم في حسائي!».
النادل: «اطمئنّ، لن يطول ذلك. فهاهو العنكبوت يقترب من حافة الصحن!».

زبون أول: «واحد سمك من فضلك!».
زبون ثان: «ولي أيضاً سمك، ولكن طازج من فضلك!»
ينادي النادل باتجاه المطبخ: «اثنين سمك، أحدهما طازج!».

والآن جولة قصيرة في أجواء أدبية:
الزبونة في متجر كتب: «أريد شيئاً جاداً، شيئاً تاريخياً».
البائعة: «خذي إذن آخر أيام بومبيجي[21]!».
الزبونة: «وا أسفاه، وبِمَ توفّي إذن؟».
البائعة: «بانفجار فيما أعتقد».

(21) مدينة قديمة على خليج نابولي طمرها عام 79 ب.م. انفجار بركان فيزوف. وقد كشفت الحفريات الجارية منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر عن قرابة 60٪ من المدينة (شوارع، ساحات، متاجر، منازل سكنية، أبنية عامة كالمعابد والحمامات الحرارية والقاعات والمسرح) (المعرّب).

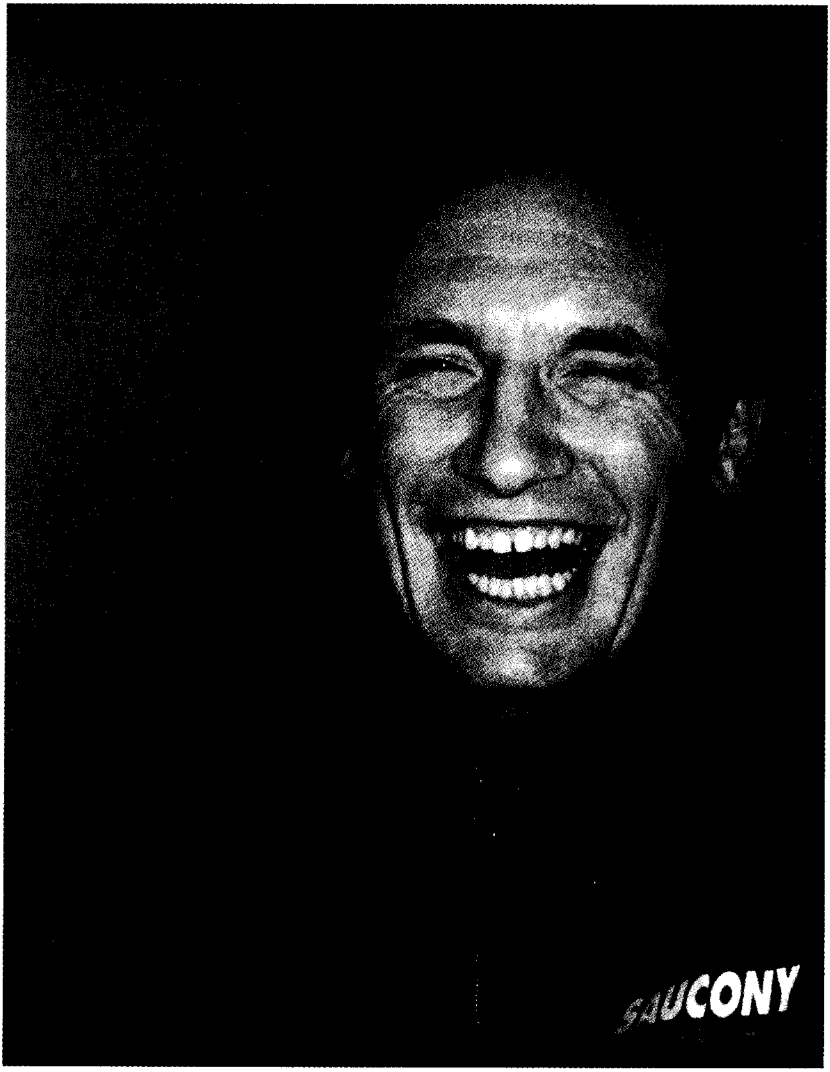

شخص يجيد الضحك

نكتتي المفضَّلة شديدة الظرف:

يذهب زوجان إلى قاضي الطلاق، الزوج عمره 96 سنة والزوجة 90 سنة.

يقول القاضي مندهشاً: «ألم يخطر هذا لكما إلاّ الآن، إنكما تريدان الطلاق؟».

يرد الاثنان في نفسٍ واحد: «بلى، لقد نوينا هذا منذ 50 سنة، ولكننا آثرنا الانتظار إلى أن يموت أولادنا!».

مضحكة، ولكنها مؤسفة بشدة أيضاً.

يا لهذه الحياة! فاللحظة الحاضرة لا تُعاش أبداً. دائماً يتم إرجاء كل شيء إلى وقت لاحق.

إلى ما بعد فوات الأوان.

إلاّ أن الحكاية التالية التي ساقها سيغموند فرويد في كتابه «النكتة وعلاقتها باللاوعي» تبيّن لنا مدى خضوع الصورة الطفولية أيضاً لتغيّر الزمن:

«يقوم شقيقان، فتاة في الثانية عشرة من عمرها وصبي في العاشرة من عمره، بتمثيل مقطع مسرحي من تأليفهما أمام مجموعة من الأقارب الكبار. يصوِّر

سوف يُسَرّ البابا عند خروجه من السجن لأننا بهذه الكثرة

المشهد كوخاً على شاطئ البحر. في الفصل الأول يشكو الممثّلان ـ الشاعران، وهما صياد مسكين

وزوجته البارعة، من قسوة الزمن ومن شحّ الرزق. ويقرّر الزوج أن يمخر بقاربه عباب البحر الواسع للبحث عن الثروة في مكان آخر، وبعد وداع رقيق وحميم تُغلَق الستارة.

يدور الفصل الثاني بعد بضع سنوات. يعود الصياد رجلاً ثرياً يصطحب معه كيساً كبيراً من النقود ويروي لزوجته، التي يلقاها أمام الكوخ، كم كان موفّقاً في الخارج. تقاطعه الزوجة متباهيةً: وأنا أيضاً لم أكن كسولةً في أثناء غيابك، وتوجّه أنظاره إلى داخل الكوخ الذي يُرى على أرضيته اثنتا عشرة دمية نائمة كالأطفال...

عند هذا الموضع من التمثيلية يقاطع المتفرّجون الممثّلين بعاصفة من الضحك لم يستطيعا تفسيرها. وراحا يحدّقان بدهشة في الأقرباء الأعزّاء الذين أصغوا بهذا القدْر من الانشداه والتشوّق. إن الشرط الذي يفسِّر هذا الضحك هو افتراض المتفرّجين أن الشاعرين الصغيرين لا يعرفان شيئاً بعد عن شروط تكوّن الأطفال، ولذلك أمكن لهما أن يعتقدا أن المرأة سوف تتباهى بالذرية التي أنجبتها في أثناء

الغياب الطويل لزوجها وأن من حق الزوج أن يُسَرّ بها.

أحبُّ النكات القصيرة.

وهنا أتّفق مع بولونيوس الذي يدعه شكسبير في «هاملت» يقول:
«لأن الإيجاز هو روح النكتة ، والإسهاب جسدها وزخارفها الخارجية، فإنني أوجز».

امرأتان فيما بينهما.
«تصوّري، لقد جاءني عصاب!».
«أنت محظوظة! فزوجي لم يعد يرسل لي منذ عشرين سنة أية أزهار!».

مستوردة من النمسا:
غراف بوبي وزوجته ينتظران طفلاً. الزوجة تعاني من آلام المخاض وتصرخ من الألم على نحو مخيف تماماً. يقول غراف بوبي محطَّم الأعصاب: «آه يا عزيزتي، إذا كان الأمر بهذه الصعوبة، فالأفضل أن ننسى الموضوع!».

رجل يسأل آخر:
«عفواً، أليس ما في الأعلى هو القمر؟».
يردّ الآخر: «لست أدري، فأنا غريب عن المنطقة!».

ممثّل عاطل عن العمل يجلس جائعاً بقرب الهاتف

آملاً بورود مكالمة هاتفية تحمل له عقد عمل.
أخيراً يرنّ الهاتف! يختطف السمّاعة بلهفة.
يسأله الصوت: «هل روتشيلد موجود؟».
الممثّل: «يا إلهي! النمرة خطأ!».

نكتة عالمية إن صحّ التعبير، يمكن تصوّرها في كل مكان يتعب الرجال والنساء كل مع الآخر.
بمناسبة عيد الميلاد تهدي الزوجة زوجها ربطتي عنق.
يبتهج الزوج ويعقد واحدة منهما على الفور.
تحتدّ الزوجة قائلةً: «هكذا إذن، فالأخرى لا تعجبك طبعاً!».

بعد غياب طويل لرجل منغمس في اللذّات يلاحظ صديقه أن في يده خاتم زواج.
فيسأله: «ماذا، هل تزوّجت؟».
يقول الرجل: «نعم، خاتم أسى، حقاً!»[23].

منذ نعومة أظافري وعلاقتي بالنساء غير موفّقة. حتى عندما كنا نلعب لعبة الدكتور والمريض كان علي تولّي دور سائق سيارة الإسعاف. (بوريس ماكاريسكو).

إحدى النكات التي تحتمل معنيين:
يقول البعض إن الرجل كسب الكثير فادّخر القليل،
يقول البعض الآخر إن المرأة ادّخرت القليل فكسبت الكثير.

نكتة للذعر أكثر منها للضحك:

(22) هنا تُستخدم الكلمة ذاتها ولكن بمعنيين مختلفين: Trauring خاتم زواج، trauring خاتم أسى أو حزن. (المعرِّب).

المجرم المحكوم في طريقه إلى الإعدام: «هاهو الأسبوع يبدأ على نحو طيّب!».

يسأل الأعمى المشلول: «كيف تسير أمورك؟».
يجيب المشلول الأعمى: «كما ترى!».

نكتة لذيذة في سذاجتها وسلامة نيّتها:

يقول الخروف لآلة قصّ الحشائش Mah
تقول آلة قصّ الحشائش: «من أنت حتى تعطيني الأوامر!»[24].

ممثّلتان طاعنتان في السنّ جالستان في مقهى. الأولى ضعيفة النظر والثانية ضعيفة السمع. تقول الأولى للثانية: «إذا قلتِ لي من يدخل أقول لكِ عما يتحدّثون!».

(23) mah هي صيغة الأمر من فعل mahen الذي يعني حشّ أو قصّ الحشيش (المعرّب).

وُعِد اثنان من المظليين أولاً أن المظلّتين سوف تفتحان طبعاً وثانياً أن سيّارة جيب سوف تكون على الأرض بانتظارهما.

المظلّتان لا تفتحان، ويهوي الرجلان بسرعة خاطفة كحجرين.

يصيح أحدهما: «يا للسخرية إذا لم نجد سيّارة الجيب أيضاً!».

الزوج لزوجته: «طبخك بائس حقيقةً، ففي كل مرة يحين فيها موعد الطعام، يتسلّل كلبنا إلى الحديقة خوفاً من أن ألقي له شيئا من الطعام!».

بوصفي ابنةً لأب نازي أعاني، كما قلت، من مشاكل مع النكات التي تدور حول اليهود. بيد أن سيغموند فرويد، اليهودي، يبيّن أن النكات اليهودية الشهيرة من ابتكار اليهود أنفسهم. ويورد في كتابه بضعاً منها، ولأن مختارات من النكات لا تكتمل دون نكات يهودية، أسمح لنفسي هنا بتقديم بعض منها.

يجلس الأخضر والأزرق في حديقة عامة. يطير من فوقهما عصفور ويُرخي برازه على رأس أحدهما مباشرة. فيقول هذا الأخير: «وهي تغرِّد لأجل الأغيار!»[26].

يلتقي يهوديان في حمام السباحة.

يقول الأول: «هل أخذت حماماً؟».
فيسأل الآخر مستغرباً: «ما الأمر، هل نقص واحد منها؟».

ينصح تاجر الخيول الزبون بحصان ركوب سريع:
«إذا اشتريت هذا الحصان ونهضت في الرابعة صباحاً، تكون في برسْبورغ في السابعة والنصف».
«وماذا أفعل في برسْبورغ في السابعة والنصف صباحاً؟».

يدخل رجل إلى محل حلويات ويطلب قالب حلوى؛ ولكنه لا يلبث أن يعيده ثانيةً ليطلب بدلاً منه كأساً

(24) الأغيار: مصطلح يهودي يطلق على من ليسوا يهوداً.

صغيراً من الشراب. يشربه حتى الثمالة ويهمّ بالانصراف دون أن يدفع ثمنه. يستوقفه صاحب المحلّ.

«ماذا تريد مني؟».

«عليك أن تدفع ثمن الشراب».

«ولكنني أعطيتك لقاءه قالب الحلوى».

«ولكنك لم تدفع ثمن قالب الحلوى!».

«ولكنني لم أتناوله!».

يصلح هذا المشهد لـ «الكاميرا الخفيّة»!

يفاجأ العريس منزعجاً لدى تقديم العروس له، فيتنحّى بالوسيط جانباً ليبلّغه هامساً انتقاداته ويسأله معاتباً:

«لماذا أحضرتني إلى هنا؟ إنها بشعة ومسنّة، حولاء وأسنانها تالفة وعيناها دامعتان...».

يقاطعه الوسيط قائلاً: «يمكنك التكلّم بصوت عال، فهي صمّاء أيضاً».

الهوس والسخافات شيء عالمي، والنكتة أيضاً.

مما تجدر ملاحظته أن المغفَّل المحبوب في الهند مولاّ نارسودين يعيث فساداً في تركيا باسم «الهوديا».

في كلا البلدين تُروى القصة ذاتها بمنتهى الدقة:

في أحد الأيام أضاع مولاّ (أو الهوديا) خاتمه الذهبي في مكان ما من المنزل.
بعد أن بحث عنه فترة من الوقت ولم يعثر عليه، خرج من المنزل ليبحث عنه على ضوء قانوس الشارع. وعندما سأله جاره عمّا يبحث، أجاب:
«أبحث عن خاتمي».
فسأله الجار: «وأين أضعته؟».
أجاب مولاّ: «في مكان ما من المنزل!».
«لماذا تبحث عنه إذن هنا في الخارج؟».
«لأن الإضاءة هنا أفضل!».

كتب الهوديا وصيّته:
أملاكي لاشيء. وهذا يجب أن يُوزَّع بالتساوي على جميع أفراد أسرتي الخاصة. وما يتبقى يُعطى للفقراء.

يقول أحدهم للهوديا: «لماذا تصرّ دوماً على أن تكون الكلمة الأخيرة لك؟».
يردّ الهوديا: «هل أفعل هذا؟».

الضحك سياسة أيضاً، هذا ما بيّنته عاصفة التصفيق والقهقهة في أحد مسارح برلين إبّان الدكتاتورية النازية عندما صرخ الماركيز بوزا في دراما شيللر الشعرية «دون كارلوس»: «مولاي، أعطوا حرّية الفكر!».

لذا لا يجوز أن يخلو كتابي مما يجب وصفه بالحكمة الموجزة أكثر من وصفه في الواقع بالنكتة.

وهي تعود إلى الممثّل المسرحي الخالد الذكر والمستميت بكل ما في الكلمة من معنى فيرنر فينْك الذي خاطر بحياته مراراً وتكراراً خلال العهد النازي بأقواله الجريئة:

«أنا أقف وراء كل حكومة لا أضطرّ إلى الجلوس فيها، إذا كنت لا أساندها».

أقوال تذكارية:

عندما كنت أقطن في الريف دبّ فيّ الحماس وقمت بجمع أقوال تذكارية تذكِّر بشخصٍ اختطفته المنيّة فجأةً. ولا تزال هذه الأقوال تسحرني لأنها تصوّر الموضوع بإيجاز واقتضاب وعلى نحو هزلي غير مقصود في الغالب. وإليكم الآن أحبّ الأقوال التذكارية إلى قلبي[27]:

قُتِلَ أحدهم على سبيل المثال بسبب فطيرة محشية ـ «حدث في رأس السنة الميلادية، حيث قتلوني من أجل فطيرة محشية» ـ شخص آخر، شاب في زيّ سكان الألب يُرى وهو يسقط من على الشرفة رأساً على عقب، وينصّ التعليق على ذلك:

«كنت في الأعلى أسلم وأكمل ـ للأسف، الأمر معكوس في الأسفل».

وقد وُجِد من حين لآخر شعراء للأقوال التذكارية، كما جاء في كتاب هانس روت «أقوال تذكارية»، مثل الخيّاط إدوارد بير من أونتراخ والمتوفّى سنة 1907،

(25) جميع هذه الأقوال التذكارية موزونة ومقفّاة في اللغة الأصل، وقد حاولت قدر الإمكان أن تكون مقفّاة في ترجمتها العربية أيضاً (المعرِّب).

والذي نُقِلَ عنه العديد من الأقوال التذكارية والنقوش على شواهد القبور.

فقد أهدى بير السطور التالية لابن فلاّح اسمه أوكس:

هنا يرقد أوكس الصغير
ابن أوكس الكبير.
ولم يشأ الربّ القدير
أن يصبح أوكس كبير.

كثيراً ما تكون قوى الطبيعة سبباً في الرحيل:

ثلاثة كانوا جالسين هنا
قبل العاصفة في أمان.
أحدهم نجى،
والآخران أصبحا في خبر كان.
(بين بحيرة فالخن وبحيرة كوخل)

هنا يرقد مدفوناً

من قتلتهم عاصفة هوجاء
عجل وثور وثلاثة خرفان
امنحهم طمأنينة الموت يا ربّ السماء.
(بيتستال)

هنا يرقد يوهان ميسّغَر ابن الحلال
الذي أصابته رصاصة طائشة خلال
رحلة صيد غزلان، عن صداقة وفية
من قبل أخي زوجته أنطون شتيغَر فوافته المنية.
(بالقرب من سانت يوهان)

الإسكافي من لاوترباخ
ثمل في نهر آخ.
أفرط في شرب الكونياك،
ولذا سقط في النهر هناك.
امنحه طمأنينة الموت يا ربّ العباد،
ولكن مع زجاجة من مشروبه المعتاد.
(في لاوترباخ على نهر آخ)

قفز هذا العجوز بصورة هزلية
على البحيرة المتجمّدة في الشتوية،
وعندما تكسّر الجليد،
سرعان ما وافته المنية.

(بحيرة شيم)

بيتر هوفر في هذا المكان مات
مطعوناً سبع طعنات.
سوف يعاقب ربّنا العادل
ذات يوم هذا الفظّ القاتل.

(بالقرب من لونا)

ترعرعتُ بصورة جد عادية
في غمرة ازدهار خطاياي الأرضية،
وإذا بثور ينطحني في خاصرتي.
فيرسلني إلى الغبطة السماوية والراحة الأبدية
ياله من جحش!

(بالقرب من بريكسن)

نُكِبَ هنا بلمح البصر
الحطّاب سيب دون شاربان
قتلته ضربة حجر
ولم يعد له وجود الآن.
(تولتس)

متورّد وحيوي في حياته
شاحب كالطبشور في مماته
في العاشر من أكتوبر احتضر
وكان جثّة هامدة في الثاني عشر
(لانر فنكِل)

ثمة شعراء نظموا أقوالاً تذكارية، كالشاعر كارل شونهِر.

ويُنسَب إليه المقطعان التذكاريان التاليان:

يا إلهي، يا إلهي، هذا واحد آخر،
ولا أحد يرقّم العظام؛
السائحون سوف لن يلعنوا كرهاً
ويفتّشوا فيما حولهم بانتظام
عما يخصّهم من عظام،

وفي يوم من الأيام
يغدو الأمر حكاية طريفة،
عندما ينهضون
في يوم القيام.

هنا نُكِب طبيب شاب من برلين
يا للمسكين
خطفته المنيّة في طرفة عين.

ثمة رجل يُدعى رودولف غراينتس، أرى أنه ينظم الشعر بشماتة حقاً:

أولاً تقطعت الحبال ،
ثم تكسّرت عظام المتقاعد بوس من هامبورغ بعد أن ارتمى
كما قضى نحبه رئيسه يوهان هوتَر،
ولكن المتقاعد ربما كان أشدّ تحطّماً.

هنا يهاجم السيد غراينتس البروسيين بشدّة، وبذلك نصل إلى القهقهة الشامتة من جديد:

هنا تدحرج إلى الأسفل أوغوست ليندمان من برلين،
كان ذات يوم حيّاً، والآن مات المسكين.
وإذا ما أكثروا من السفر إلى جبالنا
فقد يحدث هذا لبروسيين آخرين.

ثمة شيء من العداوة بين السيد غراينتس والساكسون أيضاً:

ملعونة أنت يا رياضة الألب!
ليتني بقيت هناك في درسدن!
فمع أول تسلّق
كسرت ظهري ووركيّ،
إضافة إلى تحطّم الجمجمة.
عهداً بأني لن أقوم بهذا بعد اليوم!

ختاماً لا يبقى أمامي إلاّ أن أضيف:
أيها القارئ الورع، أو غير الورع أيضاً، إن الأخطار تتربّص بالإنسان في كل مكان وزمان، وسرعان ما يداهمه الموت. لذلك، عزيزي القارئ، توقّف وتأمّل، واضحك، اضحك، اضحك!

خاتمة

سمعنا عن أشخاص يذهبون إلى الموت ضاحكين.

أودّ أن أختم كتابي في الضحك بحكاية القدّيس الذي أضحك أصدقاءه حتى بعد وداعه هذا العالم.

كان هناك قدّيس يكنّ له معاصروه محبّة خاصة بسبب روحه المرحة وطبيعته الهنيّة على الدوام.

في أحد الأيام استعدّ هذا القدّيس لمغادرة جسده، فأنشد أغنيةً وأصدر تعليماته:

«ضعوا جسدي مع الثياب على كومة الحطب ولا تغسلوه قبل ذلك!»

وهكذا جرى حرقه بملابسه.

وكان قد خبّأ في ثيابه بعض المفرقعات والألعاب النارية التي بدأت جميعها بالانفجار.

وانقلبت كومة الحطب إلى ميدان احتفال!

ضحك الناس وقالوا:

«لقد أضحكنا في أيام حياته على الدوام، وهاهو لا يزال يضحكنا حتى في مماته!».

إلى العالم الآخر مع الألعاب النارية!
لا يسعني كممثّلة إلاّ أن أحلم بمثل هذه النهاية.